الفهم المنطقي للقرآن الكريم

الدكتور صالح الشماع

ـ ١ ـ

العربية هي هدية القرآن • هـــذا قول يصدق في اكثر من معنى واحد ، وأحد هذه المعاني هو ان القرآن أول كتاب في العربية ، كما انه ظل منذ نزل به الوحي الى اليوم تقريبا أكثر الـكتب تداولا وتعرضا للشرح والتعليق • وقد اخرج لنا المسلمون في عصورهم الزاهرة كتبا في التفسير وفي علوم القرآن الاخرى فيها كثير من الغناء والخير لمن ينظر فيها • الا انه رغم كثرة الـكتب الممتازة التي كتبت عن القرآن في العربية أو في غيرها من اللغات الاسلامية ، فقد ظل هذا الـكتاب الـكريم مثارا للعلماء وحافزا على التأمل والحيرة •

هذا الخصب والخير العميم اللذان نجدهما في القرآن لم يثيرا دهشة المسلمين من حيث ايمانهم برسالة القرآن وقدسيته ، بل هما اثارا دهشة المستشرقين أيضا • وأول كتاب ممتاز يمكننا ذكره في هذا الصدد هو كتاب « تاريخ القرآن »[١] للمستشرق الالماني المشهور نلدكة ، والذي نشره سنة ١٨٦٠[٢] • ومنذ هذا التاريخ أخذت دراسة القرآن الـكريم تأخذ طابعا علميا في الغرب ، ومع كثرة الـكتب التي اخرجت في اللغات الغربية عن القرآن فلا يزال المستشرقون يشعرون بحيرة شبيهة بحيرة المسلمين ازاء القـــرآن •

وقد تسنى لـكاتب هذه السطور ان يتوفر على موضوع « المذهب الفلسفي الاخلاقي في القرآن » عند تحضيره لرسالة الدكتوراه[٣] ، ومع

---

(١) Geschichte des Qorans

(٢) وقد ظهرت طبعة ثانية للـكتاب موسعة عاون على اخراجها تلميذ وصديق نلدكه شفالي ، في جزءين ونشرت سنة ١٩٠٩ •

(٣) نشرت هذه الرسالة حديثا بعنوانها الاصلي وهو :
The Ethical System Underlying The Qur'an, Tuebingen, 1959.

ان الفلسفة الاخلاقية ليست الا واحدة من النوافذ التى يطل منها القرآن الكريم علينا ، فان هذه الدراسة الاخلاقية متصلة دون شك بكثير من المشاكل والموضوعات الاخرى التى يثيرها النظر فى القرآن ، ومن جملة هذه الموضوعات هو موضوع المقال هذا ـ أى الفهم المنطقى للقرآن •

حينما نصف الفهم بانه منطقى فاننا نعنى بذلك الفهم السليم • الا ان الوصف « منطقى » هو نسبة الى علم كبير الاهمية هو علم المنطق • وبالتالى فالفهم المنطقى هو الفهم السليم والجارى حسب قواعد المنطق ومبادئه أو قوانينه • وهنا لا بأس من الاشارة الى المعنيين الرئيسيين لعلم المنطق ، كيما نعلم حدود هذا الفهم السليم •

هناك المنطق العام[1] أو المنطق الصورى وهو يبحث فى اعم قوانين الفكر ـ أى القوانين والقواعد التى يسير بموجبها العقل البشرى ومن دونها يصبح أى تفكير مستحيلا وغير ممكن • وهناك المنطق الخاص وهو مجموع المناهج التى تتبعها العلوم الخاصة فى ابحاثها ، ذلك ان الفكر هو حد مشترك يستعمله كل باحث عندما ينظر فى الموضوعات التى بين يديه • وبالتالى كان واجب المنطق لا أن يدرس أعم القواعد التى يتبعها الفكر فحسب وانما عليه ان يدرس أيضا القواعد الخاصة التى يستعملها عند بحثه فى العلوم واحدا واحدا •

هذان النوعان من المنطق هما فى الحقيقة والواقع تعبيران عن منهجين أساسيين للفكر البشرى : المنهج الاول هو ما يمكن أن نسميه بمنهج الاتساق الداخلى والمنهج الآخر هو ما يمكن ان نسميه بمنهج الاتساق الخارجى • قوانين المنطق العام هى التى تعلمنا كيف تتسق المعانى فيما بينها ، وقوانين

---

(١) للمؤلف كتاب عن المنطق قدم جزءا منه الى المطبعة ؛ ولا بأس ان نذكر أن المسلمين قد عرفوا شيئا عن المنطق وذلك بدراستهم لكتب اليونان ، وكانت معرفتهم على الاخص بالمنطق الصورى أو العام ، لكن العلوم الاسلامية الخاصة قد تكونت لها مناهج بالتدريج وقد تعينت هذه المناهج وبالتالى أصبحت جزءا أيضا من علم المنطق •

المنطق الخاص هى التى تعلمنا كيف تتسق المعانى مع واقع الحال أو مع ما يمكن ان يتحقق فى الواقع •

هكذا نحن حين نريد ان ننظر فى القرآن الكريم نستطيع ان نفهمه بصورتين أساسيتين : بمنهج الاتساق الداخلى نعمل على مقارنة أقوال القرآن بعضها بالبعض الآخر بحيث نتبين الى أى حد تتفق هذه الاقوال فيما بينها وكيف يؤيد بعضها البعض الآخر • وبمنهج الاتساق الخارجى نعمل على مقارنة ما فى القرآن بما هو موجود فى الخارج أو بما يمكن وجوده فى الخارج : فاذا كان الامر متصلا بمسألة تاريخية نستطيع ان ندرس الوثائق التاريخية المتوفرة لنا ومن ذلك ننتهى الى تأييد أو تأويل ما فى القرآن ؛ الا انه من ناحية أخرى اذا كان الامر متصلا بنظام اجتماعى أو قاعدة أخلاقية فان المقارنة اما ان تأخذ صورة المقارنة الموضوعية التى وجدناها فى حالة الوقائع التاريخية أو انها تأخذ صورة أخرى هى تبيننا الى أى حد مثلا يمكن النفس البشرية ، الفردية أو الاجتماعية ، التكيف لهذه القاعدة أو تقبل الغرض الذى فى هذه القاعدة وتستفيد منه •

لكن المنطق ، بشكله العام والخاص ، هو مجموعة قواعد متيسرة للعقل البشرى ، وبمعنى ما لا يمكن العقل أن يحيط أساسا الا بكل ما هو انسانى • أما والقرآن الكريم هو كتاب الهى جاء به الوحى بصورة اعجازية وانزله بصورة فريدة على النبى محمد (ص) ، فكيف يسعنا ان نقول اذن ان القرآن يخضع لقواعد العقل البشرى ؟ أليس الاحرى ـ كما يمكن ان يكون هو رأى القرآن نفسه ـ ان يخضع العقل لما يأمر به القرآن ؟ ألسنا نجد فى الاسراء (الآيات : ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨) :

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا • ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا • قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • » أو لسنا نتعلم ، من جملة ما نتعلمه فى هذه الآيات الكريمة ، ان الوحى أعلى من العقل ؟ ثم أليس القرآن نفسه يقرر ضعف الانسان وعجزه المتأصل فيه بالخلقة والطبيعة :

(النساء : ٢٨) « يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » ؟
(المعارج : ١٩) « ان الانسان خلق هلوعا ! » ؟

- ٢ -

هذه الاسئلة التى اثيرت اعلاه على وجاهتها ، الا اننا نعلم من الناحية الاخرى ان القرآن نزل « بلسان عربى مبين » ، وانه ما عدا أمثلة قليلة[١] ، فان كل ما فى الكتاب الكريم معروض للانسان لكى يفهمه بعقله - أو ليتذوقه بحدسه ووجدانه[٢] . صحيح ان القرآن يطلب الى الناس ان يؤمنوا به وبما يتضمنه من دعوة . والايمان - سواءاً أكان ايماناً بدين من الاديان أم أى ايمان آخر - فى احد مظاهره ، هو حالة نفسية ومجرد قبول أو موافقة من دون اعمال عقل أو استعمال حجة أو برهان . لكن هذا القبول المباشر ليس هو كل شىء فى الايمان ، اذ قد يحصل الايمان أيضا نتيجة اعمال عقل واستعمال حجة أيضا ؛ أو ربما يصح ان نقول ان الايمان الذى هو أساسا ثقة القلب أو البصيرة أو الحدس يقوى كثيرا بتعاونه مع حجة العقل . والقرآن لا يدعو قارئه أو سامعه الى الايمان به فحسب وانما هو يستثير عنده اعمال العقل أيضا ، ففى الذاريات نقرأ « وفى الارض آيات للمؤمنين . وفى انفسكم أفلا تبصرون » (٢٠ - ٢١) .

لقد كانت عادة المعلم الاول « ارسطو » ان يبدأ ابحاثه بذكر عدد من الصعوبات أو الاشكالات ، ثم يأخذ فى ثنايا البحث بحل هذه الاشكالات واحدا واحدا . فهل يا ترى ان صعوبات القرآن الكريم هى من هذا النوع القابل للحل فى نهاية الامر ؟ ان كل ما يستطيع العقل البشرى ان

---

(١) كالحروف التى فى اوائل بعض السور مثل : « أ ل م » و « ط س » . كما ان المتشابهات مدعاة كثير من الجدل أيضا . انظر مثلا ما يحكيه ابن قتيبة (فى القرن الثالث الهجرى) عن الطاعنين فى القرآن الكريم ورده عليهم فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » ص ١٩ - ص ٦١ ، وانظر ما يقوله فى التشابه أيضا - الكتاب نفسه ص ٦٢ - ص ٧٥ .

(٢) العقل هو اداة المعرفة - ومع انه اداة رئيسية فى تحصيل المعرفة الا انه ليس الاداة الوحيدة ، فالى جنبه يقوم الحدس والحس كاداتين اخريين أيضا .

يحله وينتهى فيه برأى قاطع جازم يمكننا ان نسميه اشكالا فى مرحلة بدائية من البحث • أما ما لا يستطيع العقل ان يحله حتى وان كان ذلك فى مرحلة متأخرة من البحث فهو ليس اشكالا وانما هو لغز • هكذا يمكننا القول اجمالا ان القرآن الكريم من حيث هو كتاب دينى ومن حيث هو منزل الى الناس فمن الطبيعى ـ والواقع ـ ان فيه الغازاً وفيه اشكالات •

ان الالغاز التى فى القرآن الكريم هى كل ما يتصل بالعالم الآخر وكيفية الخلق الاول ـ من لا شىء ـ وكل ما يتصل بمسائل الغيب والمعجزات أو الخوارق للعادة ، ومن هذا القبيل أيضا ظاهرة الوحى والنبوة وافعال الله وحكمته • وربما يدخل فى هذه الطائفة تلك الصعوبات اللغوية حول بعض الاستعمالات الخاصة بألفاظ أو تعابير معينة • والحروف التى سبق ذكرها فى فواتح بعض السور • وحين نقول ان هذه الامور هى من باب الالغاز والمعميات ، فلا نعنى ان ظاهر اللفظ غير مفهوم : ذلك ان أوصاف الشقاء والنعيم فى العالم الآخر واضحة دون شك ويمكن تخيلها وتصورها ، انما اللغز هو كيفية النشور مثلا ، أى كيفية ظهور الموتى وبعثهم من قبورهم وهذه ظاهرة يعجز العقل البشرى أو الحس البشرى عن تعليلها •

لكن الى جانب هذه الالغاز هناك ما سميناه قبل قليل باسم الصعوبات أو الاشكالات وهذه الغاز وقتية يمكن الانسان بعد الاجتهاد والتوفر على البحث ان يحلها أو يقارب حلها • وفيما يلى أمثلة على هذه الاشكالات :

١ـ الناسخ والمنسوخ ؛ ٢ـ أسباب النزول ـ أى الظروف التاريخية التى احاطت بنزول الآيات أو تسببت فى انزالها ؛ ٣ـ الالفاظ ذات الاصل الغريب من مثل : « قرطاس » أو الالفاظ الغريبة فى معناها كالمعنى الدينى المتضمن فى لفظ مثل : « الزكاة » ؛ ٤ـ مشكلة الجبر والاختيار ـ أى هل الانسان حر أو مقيد فى تصرفاته ؛ ٥ـ مشكلة تعميم المعنى ـ أى اذا نزلت آية كريمة بخصوص حادثة جزئية أو شخص معين فالى أى حد يجوز للانسان ان يعد الحكم المتضمن فى هذه الآية مقصورا على هذا الشخص

وحده أو تلك الحادثة وحدها وهل يجوز تعميم الحكم بحيث يشمل الانسانية جمعاء ويشمل انات الزمن كلها ؟ ٦ـ ويتصل بمشكلة تعميم المعنى مشكلة أخرى هى الفهم الخاص للقرآن فى كل زمان أو مكان ؛ ٧ـ ويتصل بالمشكلتين (٥ و٦) مسألة الروابط بين القرآن وبين ظروف العرب العقلية والاجتماعية عند نزول القرآن الكريم والروابط بين القرآن وبين الظروف العقلية والاجتماعية للحضارات والمجتمعات التى احاطت ببلاد العرب عند نزول القرآن ـ وبالتالى مشكلة أو مشكلات الدراسات المقارنة بين القرآن وكتب الاديان والثقافات الاخرى السابقة والمعاصرة لزمن القرآن •

هذه اشكالات لم نقصد بها الحصر بل التمثيل فى عجالة كهذه • وقبل الانتقال من مسألة الالغاز والاشكالات لا بأس من التنبيه الى ان ما يعد لغزاً غير قابل للحل فى زمن من الازمان أو بالنسبة الى عالم من العلماء قد يكون مجرد اشكال فى زمن آخر عندما تتوفر المعارف الكافية أو عندما يتوفر العقل الذكى • وبنفس الصورة ما يعده البعض من العلماء انه من باب الاشكال بحيث ان نتيجة البحث تؤدى الى ازالة الغموض الذى فيه قد يعود فيصبح اشكالا من جديد بالنسبة الى عالم لا حق أو ربما يصبح لغزا مستحيلا على الفهم بالنسبة الى آخرين • الا ان هذا التنبيه هو أقرب الى ان يكون من بديهيات البحث ، لانه ما من نظرية يمكن القول مقدما انه سوف يكتب لها الخلود ، وحتى بديهيات اقليدس التى جرى عرف اهل الرياضة مدة تزيد عن الفى عام عدها أمورا ثابتة تغيرت نظرتنا بخصوصها عندما ظهرت هندسات أخرى ، أى حينما ظهرت مذاهب هندسية أخرى ، تتخذ كقاعدة لها بديهيات واوليات تختلف عن تلك التى افترضها اقليدس •

وأخيرا لنختم المقال بذكر أمثلة قليلة على مسألة الفهم المنطقى للقرآن •

ـ ٣ ـ

ذكرنا أعلاه ان مسائل الغيب والاقوال التى تتحدث عن أمور الدين تظهر للعقل فى صورة الغاز ، من حيث انه لا يمكن تقديم تعليل عقلى لها ، فالنشر من القبر أو الحشر يو الحساب هى أمور يعجز العقل أو الحس عن

الاتيان بما يؤيدها • الا انه من ناحية أخرى يسع العقل ان يطبق منهجه الاول ـ بخصوص الاتساق الداخلي ـ في حالة كثير من هذه الاقوال التي تحدث عن الغيب • هكذا يلتئم مع منهج الاتساق الداخلي ان يكون الحديث عن أهل الجنة في صورة تصورهم في حالة رضى وسعادة وان يكون أهل الجحيم اشقياء تعسين • في حين لو جاز التحدث مثلا عن الاولين بالفاظ تعبر عن الشقاء وعن الآخرين بالفاظ تنم على الطمأنينة ، اذن يسعنا القول : « ههنا تناقض ! » و « هنالك خلف ! » ولو قيل عن المحسنين ما يشبه الكلام الذي يقال عن المفسدين أو قيل عن المفسدين كلام يشبه ذلك الذي يضفى على الاخيار ، اذن لقلنا مرة أخرى : « ههنا عدم اتساق داخلي ! » •

كذلك معروف لكل من يقرأ القرآن من احدى دفتيه الى الاخرى ان هناك فكرة أساسية هي توحيد الله لم يعرها توقف أو تغير ـ وليس هذا رأي المسلمين فحسب وانما هو اجماع المستشرقين أيضا • وفي هذه الحالة لو فرضنا جدلا ان الزعم القائل بصحة قصة الغرانيق كان صادقا اذن لم يكن في الامكان ان تبقى فكرة الوحدانية بمثل هذا النقاء الذي تتجلى به الآن • تقول الرواية ان الرسول (ص) بعد ان وجد من عنت قريش واعراضهم عنه ما وجد طلب الى ربه ان يوفق بينه وبينهم ، وتستمر الرواية فتقرر انه نزل بعد هذين الآيتين من سورة النجم (١٩ و ٢٠) : « افرأيتم اللات والعزى • ومناة الثالثة الاخرى » وهؤلاء كن من اوثان العرب قبل الاسلام وكان الاعتقاد انهن بنات الله وانهن يقربن الى الله ويتشفعن لديه ، تقول الرواية انه بعد هذين الآيتين القى الشيطان ما يأتي : « تلك الغرانيق[1] العلى • وان شفاعتهن لترتجى ! » وتقول الرواية الاسلامية ان الرسول سرعان ما تنبه الى همس الشيطان ثم انزل الله عقب : « افرأيتم اللات والعزى • ومناة الثالثة الاخرى » ما يأتي : « ألكم الذكر وله الانثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى ! ان هي الا أسماء سميتموها أنتم واباؤكم ما انزل الله بها

---

(١) الغرانيق جمع مفرده غرنيق وهو طائر مائي • ويطلق اللفظ مجازا ليعبر عن الشباب الغض •

من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى . » (النجم : ٢١ - ٢٣) .

وواضح ان هذه الآيات الثلاثة تنقض قصة الغرانيق وتدحض امكان شفاعة اوثان الجاهلية عند الله ، اذ لو صح الامر لانتفت مسألة التوحيد أولا ثم لم يكن هناك داع قوى الى تبديل عقائد الوثنية الى الاسلام ثانيا[1] .

هكذا نحن نستفيد من منهج الاتساق الداخلى فى فهم أقوال دينية أو غيبية رغم انها أقوال من المستحيل ان نعقلها بحسب منهج الاتساق أو التطابق الخارجى ، أى انه ليس ممكنا لنا ان نثبت وجود الله بصورة مماثلة مثلا لاثبات وجود المادة فى مختبر الكيمياء . الا ان تطبيق منهج الاتساق الداخلى على بعض أفكار دينية كالامثلة الآنفة الذكر لا ينفى وجود كثير من الاقوال الدينية فى القرآن ينتفى تطبيق أى منهج عقلى عليها : من ذلك المسائل الخاصة بعدل الله وصفاته ، جل وعلا ، بخصوص الرحمة والقسوة ، وهل اذا قيل عنه انه « غفور رحيم » امكن القول عنه انه « شديد العقاب » ؟ وهل خلق الله اخيارا واشرارا ، او ان الشر من الانسان والخير من عند الله ، أو ان الانسان خلق دون خيرية أو شرية ثم تسبب الانسان نفسه فى الخير والشر ؟

هذه مسائل تبدو فى القرآن عسيرة على أى فهم منطقى لها ، ويبدو انها من جملة ما يدعوه القرآن باسم « المتشابهات » : « ... منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات ... »[2] ظاهر من هذا التمييز

---

(١) يقرر R. Bell المستشرق الاسكوتلاندى ان حديث الغرانيق ليس من الراجح كونه ملفقا . وفى مثل هذه الدعوى يلهو عادة خصوم الاسلام ! انظر ترجمة بل هذا للقرآن الى الانجليزية (٣٧ - ١٩٣٩) ، المجلد الثانى ص ٥٤٠ - ص ٥٤١ ، هامش .

(٢) انظر الآية باكملها فى آل عمران (٧) . وفى رأى البعض انه حتى المتشابه لا يمكن ان يخفى عن ذوى العلم (الاتقان للسيوطى ، ج ٢ ، ص ٣) ، أى كأن المتشابه هو من نوع الاشكالات التى يعسر فهمها وقتيا .

بين المحكم والمتشابه ان هناك فى القرآن آيات تتحدث عن مسائل رئيسية فى الاعتقادات وشؤون الحياة الانسانية المهمة الاخرى ، وان هذه الآيات ـ المحكمات ـ هى تلك الآيات الواضحة المفصلة التى لا تتناقض صوريا بحسب منهج الاتساق الداخلى أو لا تتناقض ماديا اذا قورنت بما هو راهن أو كائن فى المجتمع البشرى او اذا قورنت بما يمكن وجوده فى المجتمع البشرى • لكن الى جانب هذه المحكمات هناك المتشابهات وهى أقوال لعلها ان تكون شبيهة بذلك النوع الذى يسميه أهل المنطق الحديث باسم « الاقوال الانفعالية » أى الاقوال التى تعبر عن المشاعر الشخصية البحتة التى لا يمكن ان يشترك فيها الناس جميعا • كذلك تتمثل الانفعالية بكل ما نجده فى الشعر وفى الكلام المجازى على العموم •

ويبدو ان المتشابهات التى فى القرآن ليست كثيرة أو انها ليست متعددة الى درجة انها تغطى على المحكمات وتطمس معالمها • هكذا نحن نقرأ فى أزمان متعددة من نزول الوحي دفاعا عن وضوح القرآن جملة وتفصيلا :

(١) فصلت (٤٢) : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ••• » •

(٢) فصلت (٤٤) : « ولو جعلناه قرآنا اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى ••• » •

(٣) النساء (٨٢) : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا » •

هذه الامثلة الثلاث يجب الا يفهم منها ان كل ما فى القرآن اطلاقا واضح متميز ، وعلينا ان نفهم الامر بتذكرنا الآية (٧) من سورة آل عمران التى سبق الاشارة اليها •

ولنختم المقال بذكر هذا المثل الاخير عن مراحل تحريم الخمر وعلاقة ذلك بمنهجى الاتساق الداخلى والخارجى •

لقد كان تناول الخمر معروفا مألوفا عند عرب الجاهلية وكان بعض الشعراء يفاخرون بكثرة شربهم ومجونهم عند موائد الخمر ، وقد انتهت

الفترة المكية من البعثة الشريفة دون تعرض ظاهر أو خفى للخمر[1] ؛ وقد اعتاد المسلمون فى مكة ان يجاروا السنة والعادة الجارية فى الامور التى لا ينهى عنها القرآن أو لا يأمر بما يختلف عنها بشكل أو آخر • ثم جاءت الفترة المدنية ومضى أكثر من عام والامر مسكوت عنه • بل ونجد فى سورة محمد (مدنية) آية (١٥) فى الحديث عن الجنة ما يلى : « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها ••• انهار من خمر لذة للشاربين ••• » لكن بعد هذا السكوت الذى استمر ما يقرب من خمس عشرة سنة من البعثة الشريفة يأخذ القرآن بتغيير موقفه ، فيتحدث عن تحريم الخمر بصورة تدريجية فى المراحل الثلاثة التالية :

(١) البقرة (٢١٩) : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما ••• » •

(٢) النساء (٤٣) : « يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ••• » •

(٣) المائدة (٩٠ – ٩١) : « ••• انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون ؟ » •

فى هذه المراحل الثلاث نشاهد تدرجا فى النهى عن تناول الخمر • فى المرحلة الاولى يقابل القرآن الكريم العادة فى منتصف الطريق ويوافق الناس على ما قد يمكن ان يكون فى الخمر من منفعة ، الا انه فى الوقت ذاته يقرر قضية مخالفة لذلك وهى ذكره ما فى الخمر من ضرر أو اثم ،

---

(١) هناك اشارة خفية فى سورة الطور المكية الآية (٢٣) ، ففى الحديث عن اهل الجنة نجد ما يلى : « يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم » • ولعل لقائل ان يقول ان فى هذه الاشارة تعريضا بمضار الخمر واثامه فى هذه الدنيا • لكن يبدو ان ما فى هذه الآية الكريمة هو مجرد اشارة الى ما يحدث عن الافراط فى الشرب ، وان خمر الجنة حتى عند الافراط فيها لا تصيب شاربها بأذى • والمسلمون على أية حال لم يفهموا من هذه الآية المكية ان فيها اية اشارة الى مضار الخمر •

اثم هو أكبر فى نهاية الامر من المنفعة • ويبدو ان حاصل الآية الكريمة هو مجرد التنبيه والتحذير ، وليس فيها ما ينبىء مثلا ان اثم الخمر هو من نوع المعاصى الكبيرة • ولعل فى امكاننا القول انه لو لم تنزل آيات سورتى النساء والمائدة بخصوص الخمر لعد المسلمون الخمر من جملة المكروهات ـ بلغة فقهاء المسلمين فى تصنيفهم لدرجات الاباحة والحظر • الا ان آية سورة النساء جاءت فحرمت تناول الخمر أو على بعض التفاسير حرمت الافراط فى الشرب عند القرب من الصلاة • اذ ان لفظ السكر يعنى الامتلاء من قولهم « سكر الحوض ـ اذا امتلأ » • وآية النساء هذه لا تحرم الخمر على الاطلاق على أية حال ، لكن ما فيها من حظر هو أكثر على أية حال مما وجدنا فى آية سورة البقرة • وأخيرا نجد أمراً قاطعا لا مواربة فيه فى سورة المائدة ـ هذا القطع الذى اوحى من بعد الى الفقهاء المسلمين ان يصوغوا المبدأ القائل : « ما كان كثيره مسكرا فقليله حرام » •

هذا المثال العينى الذى بين ايدينا بخصوص الخمر لا ينطبق فيه دون شك استعمال منهج الاتساق الداخلى • ولسائل ان يسأل : اذا كان الخمر مضرا فلم هذا السكوت عنه طوال ما يقرب من خمس عشرة سنة من البعثة الشريفة ؟ واذا كان الخمر مضرا فلم هذا الاقرار الصريح فى سورة البقرة باعتباره نافعا ولو منفعة جزئية ؟ امثال هذين السؤالين لا يوفران لنا أى اتساق عضوى داخلى بخصوص مسألة الخمر هذه • الا انه من الناحية الاخرى ـ ودون ان نتعرض لاية تبريرات دينية أو غيبية ـ يمكننا القول بان البشرى لا يخضع لمنهج الاتساق الداخلى فحسب وانما هناك منهج آخر فيه من الصواب بقدر ما فى المنهج الاول ـ أى منهج الاتساق الخارجى أو مطابقة ما هو كائن أو ما يمكن وجوده فى الخارج •

فى هذه الحال الاخيرة نستطيع ان نستحضر أمام اذهاننا ما تعلمناه عن النفس البشرية ، الفردية أو الاجتماعية ، وكيف ان شؤون التربية والسياسة والعادات وغير ذلك من شؤون الانسان هى أمور لا تحدث عادة فى طرفة عين كما يتكون الملح بمجرد وضع حامض على قاعدة • بل ان كان ما يتصل بظواهر الحياة من أدناها فى مستوى النبات الى اعلاها فى المستوى البشرى

والحضارى يمر عادة بأدوار حضانة وطفولة وترعرع وهذه الادوار تستغرق فترات زمنية تطول أو تقصر بحسب الحالة موضع النظر • ومن هنا فمن حيث تأصل عادة الخمر عند الناس مدى اجيال طويلة تطاول قرونا وأكثر فما المانع من زيادة بضع سنوات اخرى ؟ ثم أليس فى مثل هذا الاعداد بعد نظر وكفاءة فى العمل على أية حال ؟

هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى يستطيع الانسان ان يسأل أبدا مثل هذا السؤال : وهل فى ترك الخمر نهائيا أى فائدة على وجه الاطلاق ، بحيث ان مثل هذا التدرج فى المنع يكون له ما يسوغه ؟ هذا السؤال الاخير لعل من الافضل ان ننهى به مقالنا الآن ولا مانع ان نترك الاجابة عليه الى جمعيات حظر المسكرات المنتشرة فى كل انحاء العالم المتحضر أو الى الدول التى حظرت الخمر كليا أو جزئيا رغم انها لا تدين بدين القرآن وانما الذى دفعها الى ذلك هو دوافع مماثلة للدوافع التى نجدها لدى جمعيات حظر المسكرات •

هذا ونأمل ان نعالج فى مقال تال تطبيقات اخرى للمخطط المنهجى الذى اشرنا اليه فى هذا المقال •

ملحـــوظة :

لقد تكلم بعض المسلمين ـ كالمعتزلة ـ فى الله وصفاته ومسائل التنزيه والتشبيه وفى النعيم والجحيم وأمور الغيب • الا ان البعض الآخر اكتفى بتعريف الله بطريق السلب أى بالقول انه لا تحده حدود أو كما قال الامام علي فى نهج البلاغة « من حدّه فقد عدّه » • وفى آية المحكمات والمتشابهات (آل عمران ـ ٧) التى اشرنا اليها فى المقال نجد القرآن الـكريم يعد من صفات المنافقين تأويلهم للمتشابه ابتغاء الفتنة بينما « الراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا » • ولعلنا من هذا نفهم ان المحكم هو ما اتضح معناه للناس اما المتشابه فهو من النوع المعجز أو من نوع اللغز ؟ بدليل قوله ، جل وعلا ، « وما يعلـــم تأويله الا الله » أى ما يعلم تأويل المتشابه • « لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما » (الطلاق ـ ١٢) •